

قصص فرعونية :

٣ - قصة سينوحيت

لأدب مصرى قديم

للأستاذ محمد خليفة التونسي

[ملخص ما نشر في المجلد ٦٦٣ و ٦٦٦]

[أشرك ملك مصر أمستحت الأول قبل وفاته بمئتين سنة ، ابنه وولى بعده أمستحت الأول في حكم مصر ، وكان أمستحت يقوم بقيادة الجيوش في حملاته على البلاد الخارجية ، بينما يبقى أبوه في العاصمة لتدبير شئون مصر .

• في إحدى حملات أمستحت على ليبيا كان يرافقه بطل القصة سينوحيت الذي كان حافظ أخناتم الملك وتلميذه ومستشاره والقيم على شئون الغزاة في مملكته ، وبينما الجيش عائد إلى العاصمة من الغرب جاء رسول من القصر إلى أمستحت ينمى إليه أباه سرًا ، وسمع سينوحيت بنمى فقرر الفرار من الجيش ومصر جيمًا لأنه رأى في بقائه في مصر خطرًا على حياته ، بعد موت أمستحت واستبداد أمستحت بالأمر فيها ، فاختفى في أحد الحقل حتى مر الجيش على مكانه دون أن يراه أحد ، ثم سار إلى سفرو ثم الجزيرة ، ثم عبر النيل إلى الشرق على طوف وجده هناك حتى وصل الجبل الأحمر ، ثم سار إلى الشمال بجواراً ملحة عند عين شمس كانت تحمي مصر من غارات الأسبويين ، ثم انحدر في وادي كيور (طوميلات في إقليم الشرقية) وفيه كاد يهلك طاملاً لأن عثر عليه رجال من السائي (بدو آسيا) فعرفه أحدهم وأقنوه وأصافوه أياماً عندهم ، ثم رحل إلى أدرم فبقى فيها نحو سنة أشهر ، ثم دعاه أحد أسراء فلسطين إليه فبقي دعوته ، وهناك سأله الأمير عن سبب هجره فلم يجبه جواباً يطمئن إليه ، وحاول الأمير أن يبرف منه أحوال مصر ، وأن يريته في قوتها بعد موت أمستحت وتولية أمستحت ، ولكنه أجابه بأن مصر لم تضعف بل زادت قوة بتولية أمستحت ووصفه له وصفاً يدل على بلاغة وإخلاص ، وكان وصفه بامناً بين أبلغ الترغيب في الملك والترغيب منه ، فأقطعه الأمير أرساً وولاه ولاية يحكمها وزوجه كبرى بناته فأعجبت له كثيراً من الأبناء الذين صاروا رؤساء للشار في الولاية التي يحكمها أيوم من قبل الأمير ، وولاه الأمير قيادة جيشه فأبلى في مكافئة أعدائه البدو وتأديب بلادهم خبر بلادهم ثم جرت بينه وبين أحد البدو مبارزة انتصر فيها على البدوي وقتله واستحوذ على أمواله ،

وقد وقعت هذه المبارزة (١) في آخر اللدة التي أقامها هناك والتي تريد على مئتين سنة ، وقد رأى بعدها أن موقفه دقيق حرج في اغترابه ، فاستكثر من الأموال لتكون له عوناً عند البلاء ، كما أرسل إلى ملك مصر رسالة بانتمس فيها أن يأذن له بالعودة إليها بعد أن صار شيخاً صعباً ، ووصف له كيف كان في أول اغترابه بانساً وحيداً ثم كيف صار حاكماً هو وأبنائه والذين اتبعهم على إحدى ولايات فلسطين وعشايرها ... وهذه بقية الرسالة والقصة ...]

« أو لم يأن لي أن يصفح مولاي عن جريمة هربي ، فأعود إلى وطني ، وأسترد مكاني في البلاط ، وأحظى بالعيشة الراضية في تلك البقعة المباركة التي زكت فيها قلبي . إنه لا سعادة لي إلا بأن أرجع إلى تلك البقعة حيث ولدت ونشأت ، ثم أموت وأدفن هناك ، فأسمع من يقضى نحبه في بلد ولد ونشأ فيه ! أشد ما تحملت - يا مولاي - في غربتي من آلام ! وطالما صبت نفسي إلى أن أراي في وطني مرة أخرى لأنعم في جنياته بالراحة والسلام ، وما أكثر ما قدمت من القرابين للالهة عليها تنظر آلامي وتحقق آمالي . حبذا لو تكرم فرعون مصر العظيم فشملني بمطفه ، ومكنني من أنعم بإحسانه ، وأتقدم بولائي إلى ربة قصره ، وأقف على حالها وحال بنيتها وبناتها . إذن لرد مولاي إليّ بذلك شبابي الضائع ، فهأنذا أشمر بالشيخوخة تسمى إليّ ، والخور ينسرب في كيائي ، والكلال يربن على عيني ، والأضمحل يدب في رجلي ، والفتور يتغلغل في عروفي ، والبطء ينتاب نبضات قلبي .

ويحي ! فإن النية القاسية لتسبي إليّ لتختطفني ، وما أوحى ما تقذف بي إلى الهاوية الأبدية ، فهلا يتاح لي أن ألقى بسيدة القصر سلطانة العالمين ، فأجد راحة الموت على يديها » .

لم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى أتاني جواب الملك العظيم وقد حقق آمالي وما فوقها ، فقد عفا عني وسمح لي بالعودة إلى وطني ، وولائي ولاية من قبله في الخارج ، كما أتحفني بكثير من الإناوات ، وأرفقها بتحية أولاده ، وما هو ذا أسره الملك

(١) هذه المبارزة تشبهها قويا مبارزة وقعت في فلسطين أيضا بين سيدنا داود وجيسار من فلسطين يسمى جليات (في القرآن الكريم جالوت) بعد أكثر من ألف سنة من سينوحيت ذكرها العهد القديم : الأنبياء : صموئيل الأول : الأصحاح ١٧ الفقر ٤ - ٥ . والفران : سورة البقرة : الآيات ٢٤٩ - ٢٥١ .

هذا ما ستكون عليه شوائر دفنك في وطنك بين أهلك ،
ولن تموت كما تخشى في أرض أجنبية فيلفك الآسيويون في أديم
شاة ، ثم يشيمونك وهم يدقون الأرض ، ويبكون على جثتك إلى
أن يغيبوك في الحدك وعاميك أن تبادر إلينا بالرجوع .

كنت محتما برجال قبيلتي حين أتاني الجواب ، وما كنت
استوعبه حتى خررت على وجهي ، وعفرت بالتراب رأسي ، ولم
أعمالك نفسي أن أقفز وأن أطوف بفسطاطي ، وأصيح قائلا :
« عجبا لي ! كيف أجاب إلى ما طلبت ، وما أنا إلا تابع تبرد على
سيده ، وأبن من وطنه مهاجرا إلى أقطار أجنبية . لشد ما أجد
من غبطة بعد أن عفا مولاي عني وأذن لي أن أرتد إلى وطني
آمنا على حياتي ، ولأقيم في بلاطه على الشأن راضى المعبشة إلى
أن يوافيني أجلى » .

ولم ألبث أن كتبت إلى مولاي هذا الكتاب ، قدمته بين
يدي رحيلي إلى وطني : « إني خادمك سينوحيت ، أقدم إلى
جلالتك بخشوعي وولائي وتحياي ، ملتصبا بفوق عما جرت به علي
حماقتي حين أبقت من مصر ، وإنك لرب النفرة أيها الإله
النبيل المهيمن على العالمين ، وإنني لأتوسل إلى رع وحورس وهاتور
وسائر الأرباب العظام أن تهبك الخلود ، وتلهمك الحكمة
والسداد في كل خطاك ، وتكفل لك الأمن والسلام ، وتندق
عليك نعمها ظاهرة وباطنة ، وتبسط سلطانك على الصحراء ،
وتمدد على كل ما تطلع عليه الشمس من المهور والحزون .

لقد أسبغت نعمك على أيها الإله الجليل كما يسبغ رع نعمه
على مرديده ، وقد اطلعت على ما حاك في صدرى فشملتني برحمتك
وهديتني من ضلال ، وآويتني من اغتراب . وإنه ليحلو لي أن
أعبد ما كتبت به يا مولاي إلى من روائع حكمت وآيات بلاغتك ،
وما كنت إلا خادما تافها لا يستحق شيئا من هذه النعم ولا بعض
هذا الاهتمام ، لولا أنك - في جلالك ورحمتك - كالإله
العظيم حورس تظلل برعايتك جميع رعيتك .

ولقد ظلمت لك - يا مولاي - التابع الأمين الوفي في
كل ما قلت وفعلت ، وإن أمراء هذه الجهات شهداء على ما أقول

الكريم : « من حورس بن رع صاحب التاجين ، وحاكم مصر
العليا والسفلى ، وروح النسل ، وماج الحياة ، والمخالد على مر
الدهور . الأمر الملكي العالي الموجه إلى الشريف سينوحيت
لإعلامه بما رأى جلالة الملك فيما التمس منه .

هاتذا قد فررت من الدلتا إلى أصقاع أجنبية ، وارتحلت
من أيديوم إلى نو ، وجست خلال بلاد شتى طوعا لما جال بمحاطرك
تأمل ، ويحك ، ما أذاك إليه طيشك !

لست أدري ماذا حملك على هذه الهجرة ، وأنت لم تجترح
جرما ، ولم تحتكم إلى مجلس الأنراف لتسمع حكمه فيك .
إنها أوهاملك الكاذبة التي دفعتك إلى تلك الهجرة .

ولقد كان ما كان من أمرك على ما علمنا وعلمت ، فلا تتحول
عما أزمعت من الرجوع إلى وطنك بمد أن وضع لك المذهب
السوي ، كما أن مولاتك الملكة لا تزال تتألق في القصر على غاية
من الرغد والمافية ، وقد نما أولادها وصاروا زينة القصر ،
واخذوا منازلهم في القصر ، وقد ابتهجت الملكة وأولادها بنبا
مقدمك حين يسمي إليهم ، ويسعدهم أن يجزلوا لك الهبات ، وأن
يرعوا حقوقك . ولشئ أنك ، عند عودتك إلى القصر الذي فيه
نشأت ستكون حيث يليق بك ، فدع كل ما في يديك ، وعد
إلينا بنفسك ، حتى إذا بلغت مصر فاجمل وجهتك القصر المعظم
فإنك ستكون فيه زعيما على أندادك مرة أخرى .

هاتذا تشمر بالشيخوخة تدب إليك ، والضعف يحترم قواك
وقد صار التفكير في دفنك بعد موتك يقلق فكرك ، ويمدبك .
لا تجزع فإنك ستعود إلى الوطن القدس ، حتى إذا حان حينك
زملوك بلغائف الكتان ، وسبوا عليك الزيت حنوطا ،
ووضعوك في نش مذهب قد طلى رأسه بطلاء لازوردي ،
وغطى بغطاء في شكل السماء ، وعندما تشيع جنازتك ستجرها
الثيران ، وبين يديها الرتلون يرددون أمامك أناشيدهم ، وإذا
ما أنزلت في قبرك - حيث يقبر أبناء الملك - رقصوا أمامك
رقصة الدفن ، وقام النائحون يحارون بملواتهم ومراثيهم
لتأبينك ، ونحت القرابين على روحك ، وشيد فوق قبرك هرم
من الرخام التاسع .

الملكية إلى العصبة التي تولت خفرتي في أثناء الطريق من رجال الساقى ، فأذنت فيهم ، وسلمت كلا منهم ما يستحق منها وبلغتهم تحيات الملك وشكره ورضاه ، فحملوني تحياتهم إلى وتقديرهم لعمته ، وكروا إلى بلادهم راجعين .

أما أنا فقد تابعت رحلتى حتى بلغت ثوى (الناصرة) وعنده نفس الصبح واتفق رسل الملك بدعوتى إلى التول بين يديه فسرت معهم حتى بلغنا القصر ، فصالحنا أرضه ، وفى قسائه وجدت أولاد الملك مهيبين لاستقبالى ، ثم اقتادنى رجال الحاشية إلى حجرة الملك المذهبة الفاخرة ، وفيها وجدت جلالة مستو على عرشه الفخم ، فسجدت بين يديه ، وعندئذ أحسست بالعمى برين على عيني ، وبالإبحلال يشل أعضائى فيمنعها الحركة ، وشعرت لى أن قلبى زال عن مكانه ، وكانت قد حالت بين الحال حتى يعرفنى جلالة ، فأشفق علىّ ، وأمر رجال الحاشية أن يقيمونى ويحدث إلى برفق ولطف ، ليسرى عني ما ألمّ بى من الدهشة وبطلق لسانى مما علقه من الاستغراب ، فأحسست بالحياة تعود إلى بعد الموت ، وبالتنطق يعود إلى لسانى بعد الحصر ، وبدأت أعى ما حولى وأتأهب لفهم ما يلقى إلى .

قال لى جلالة : « هاتئذا أخيرا فى القصر بعد أن جئت خلال القفار ، وتغرست بالأسفار النائية ، فقد مسك الضر ، ونال منك الوهن ، وصرت شيخا ضعيفا حتى ليسر تخنيط جنتك ، ماذا أنت ؟ وفيم وجومك ؟ أهو الخوف قد عقد لسانك وحصره عن الكلام ؟ » .

فاستجمت قواى ، وتحملت على نفسى ، وبأذرت جلالة قائلا : « ومم الخوف يا مولاي ؟ إننى لم أسمع من جلالتك ما أخشاه ! إنما أنا إنسان ضعيف ، لا تؤيده قوة علوية تدفع عنه ما يوحى بعضرك من رهبة فى قلبه ، وهاتئذا أمامك ، وحياتى منك وإليك ، وقد وضعت حياتى كلها بين يديك » .

وما هى إلا لحظة حتى دخلت الملكة والأميرات ، وشاء جلالة أن يتوسط مى ، فقال مداعبا : « هذا سينوحيت قد أقبل كأنه أحد رجال المامو (بدو آسيا) ! » .

فتجاهلتنى الملكة والأميرات ، وهتفن معا : « ما هذا سينوحيت أيها الملك ! » .

وحسبك يا مولاي أن كل السكان هنا ينظرون إلى جلالتك فى خضوع الكلاب الوفية ، ما تبدت عواطفى لمحرك ، وما كانت هجرتى إلا رؤيا حالم فى الشمال بأنه قد صار نجاة فى أبو (قريب أسوان شمالا) أو رؤيا حالم من جيرة الوادى فى الجنوب بأنه رحل إلى مستنقعات الشمال ، فأنا لم أحن ذنبا أخشى منيته ، ولم أدرس أذنى بالإسقاء إلى الأشرار ، ولم يلهج باسمى لسان فى مجامع القضاء ، وما فتئت فى غربتى أرفع ذكرك وأشيد بمظمتك ، وما كانت هجرتى من مصر نظاما مدبرا ؛ بل خاطرا فطيرا مرعجلا تلجلج فى صدرى فاطلقت قدماى انطلاقا ، لقد قدرت الآلهة على الهجرة ، ثم قدرت لى العودة ، وهاتئذا أتلف إلى جلالتك مطاطى ، الرأس لملك تغفر عني ، وتتجاوز عن سيئاتى . ولا على الإنسان أن يعود إلى وطنه ، فما مقامى فى هذه الغربة كقماى عندك فى القصر ، أيها الملك العظيم الذى نشر الآلهة رعب رهبتك وجبروتك على كل البلاد ، فكل سكانها ينظرون إليك خشية وعيبة بقلوب مضطربة وعيون زائفة .

سأترك كل ما فى يديّ هنا طوعا لأمرك الكريم لئلا له الأمر بى ، غير أنى أطمع أن تأذن لرسولك إلى أن يختار ما يروق له هنا . وسأبقى مدينا لك وحدك بحياتى التى أنقذتها من العذاب ، وأدعو رعب وحورس وهاتور ومنث - وأنت صفها واختارها - أن تصفيك الحياة الراضية الخالدة » .

وأقت مهرجانا عاما نفخا فى إقليم (باغ) ثم دفعت إلى أبنائى كل ما تحت يديّ من أموال وأنعام ، وخلفنى ابنى الأكبر فى زعامة القبائل فاخص بكل مالى من الحدائق والبساتين والحقول والأشمام . وما فرغت من ذلك حتى وليت وجهى شطر الجنوب فى عصبة من رجال الساقى (البدو) كانت مهمتهم خفرتى فى الطريق طوال رحلتى إلى مصر ، ومضينا تغدو السير حتى بلغنا طريق حورس قرب الفرع الشرقى للنيل حيث أقيم هناك حصن لدفع الغارات عن الحدود ، فاستقبلنا حاكم الإقليم بمحفاوة ، وبث رسولا إلى البلاط يخبر الملك بمقدمنا ، وما هى إلا أيام قمضيناها هناك فى طريق حورس حتى بمت الملك إلينا كبير الشرفين على مزارعه فى أسطول من السفن تحمل الإناوات

فأجاب : « بل هو سينوحيت نفسه » .

ابتهجت الملكة والأميرات بمقدى ، وبأدرن إلى جناحهن في القصر ، ومرعان ماعدن وقد تقلدن القلائد ، وانتطقن الناطق ، ونهيات نالات الرقص ، وطفقن برقصن وببشدين هذا التشيد :

جارك^(١) الأرباب بالخير العميم أيها الملك وأصفوك^(٢) الخلودا وأحاطوك بآيات النعم وحيوا^(٣) عهدك عزاً وسعودا ورعا مسراك أرباب النجوم ابن أبحرت هبوطاً وسعودا جامع التاجين في تاج يقوم حوله الثعبان وضياء فريداً فوق رأس لك جبار حكيم لم يزل في كل ما يحصى سديداً^(٤)

قد أزلت البوس عن مصر فزالا وعدت أقدارها في راحتك دان قطارها جنوباً وشمالاً لك، واستخذى^(٥) أعادها الديك كل من فيها - إذا شاء سؤالا لا يرى من ملجأ إلا إليك حيث ضاق الناس بالعيش احتمالاً لم يكن ممتدداً إلا عليك دمت للخائف والماني عمالاً^(٥) تبذل النعمى وترجي من يدبك

قد حباك الحكم والبأس الآله فازل خوفك عن هذا الريب ويح سينوحيت قد طال أذاه فحياء من الخوف كئيب^(٦) فر من مصر بلا ذنب جناه وهو المولود فيها والريب خوفه بأسك منها قد نفاه فاتفق والخوف يغرى بالذنوب فاردد المجد إليه والحياء إنه فينا ومنا قريب وما انتهى الرقص والتشيد حتى قال جلالة الملك « ياسينوحيت لا تقرب عليك ، فلن يصيبك ما نكره ، ولن يحيق بك سوء وليهدأ قلبك ، وبفرخ روعك ، إنك منذ الآن من رجال حاشيتي بل صفني من بين جميع النبلاء ، فانطلق إلى القصر الذي

(١) جارك : أطرك .

(٢) أصفوك وحيوك : معوك دون ميرك .

(٣) سديداً : على صواب .

(٤) استخذى : ذل وخضع .

(٥) عمالاً : ماجاً وميتاً .

(٦) كئيب مابس .

اختصصناك به ، ثم عد إلينا في البزة التي تليق بك » .

وأمر الملك رجاله أن يذهبوا إلى خزانته لآخذ ما شاء من نفائسها ، وخرجت مع الأميرات وأيديهن في يدي ، حتى بلغنا الباب العظيم ، ثم حلت قصراً من قصور الأمراء أهداء إلى الملك ، وقد سحلت إلى فيه خيرات كثيرة من القصر الملكي الأبيض ، وجاءتني نفائس من الحلل الملكية والمطور التي يصطفها الملك .

وقد وجدت قصرى نفثاً وأثانه فاخراً ، ورأيت له جنة ذات فواكه وأشجار ، وفيه كثير من الأتباع والخدم الذين أعدوا لخدمتي ، وما كدت أحل بقصرى حتى انتزعوا ثيابي الحقيمة ، وألبسوني حلة بيضاء فاخرة من الكتان ، ورشوا على من أجود عطور مصر وأطيبها ، بعد أن أزالوا الحيتي وقصوا شعرى ونسقوه ثم قذفوا بثيابي القديمة إلى عرض الصحراء .

ونمت هناك على فرش وثيرة ، فتذكرت أبائى بالرمل وأهله وما آل إليه حالى من نعمة في هذا القصر الفخم ، بعد أن صرت في عداد النبلاء ، وعندئذ أحسست بالشباب يعود إلى بكل مزاياه .

أقمت بقصرى منها ، وكان الطعام يحمل إلى ثلاث مرات أو أربما من القصر كل يوم ، وكانت الأسرة الملكية تفرق بيننا وآمتها على الدوام ، وذهب لى الملك كل ما أمام قصرى من الحقول والبساتين بما لا يهبه إلا لرئيس ديوانه .

ومع كل هذه النعم التى أضفاها الملك على لم يغفل عن أن ينى بوعده الخاص بمدفنى ، فقد أمر جلالتة بأن يشاد لى هرم من الرخام الناصع ، فوضع تصميمه كبير المهندسين فى القصر ، وشيده كبير البنائين فيه كأنقن وأجل ما شيد فى حياته ، وقد حفر قبرى تحتة فى صخرة ، وبعد أن تم الهرم قام رئيس النقاشين نفسه بنقشه وزخرفته ، وهكذا حظيت بما لا يطمع فى الخطوة به من كان مثلى تقاهة ورفقة حال ؛ ولست أرجو إلا أن أنقضى ما بقى من عمرى مستمتاً بجوار مولائى بما أنا فيه من فضله وبره ، حتى أفارق الحياة ، فأنقل إلى مدفنى .

محمد خليفة التونسي

شعاب قلب

دررس قسانة نمليبة

صور من صميم الحياة

نمابل فصصى على زهس الفارى

عرض مشوق مرغب

بقلم

هبيب الزملاوى

يطلب من إدارة الرسالة الثمن ١٥ عدا البريد

بارر بافتنار نسفك من كتاب :

دفع عن البلاغة

للأستاذ

احمد الزيات

وقد زبرت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية نشر الاعلانات فى الرسائل البرقية

إن الإعلان فى الرسائل البرقية المتداولة بين سكان القطر المصرى بأجمعه هو دعاية هامة واسعة النطاق قد هياتها المصلحة
للعمل الذى یرى إلى رواج أعماله وللتاجر الذى يبنى التوسع فى تجارته وقد راعت المصلحة أن تكون أجور النشر فى هذه الرسائل
زهيدة وفى متناول الجمهور فجعلت كل مائة ألف إعلان بثلاثين جنها مصرىاً وكل ربع مليون بسبعين جنها وكل نصف مليون
بمائة وعشرين جنها فضلاً عن تخفيض معين فى المائة إذا بلغ المراد نشره مليوناً أو أكثر من الإعلانات .

إنهزوا هذه الفرصة ولا يفوتكم أن تحجزوا من الآن القدر اللازم لكم من هذه الرسائل

ولزيادة الإيضاح إتصلوا بقسم النشر والإعلانات

بالإدارة العامة — محطة مصر